

المضمون الأسطوري في شعر امرئ القيس

د الشيخ أحمد البار

أستاذ مساعد

جامعة حائل المملكة العربية السعودية

مقدمة:

: تبدو أهمية الموضوع من حيث كونه يتناول مدونة شعرية لشاعر من أعظم شعراء العربية هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، كما أن هذه الدراسة تزداد أهمية إذا كانت الدراسة تسعى لكونها معالجة نقدية لشعر امرئ القيس برؤية معاصرة من خلال استثمار التحليل الأدبي للنصوص الشعرية للوقوف على الخلفية الدينية والأسطورية لتشبيهاته، والغاية من ذلك معرفة الهوية الاعتقادية لإمرئ القيس من خلال شعره ومصادر هذه الهوية، ومظاهر تنوعها سبيلا لرسم صورة كلية للرؤية الاعتقادية له نظرتة الخاصة للألوان وصولا إلى اكتشاف طريقة توظيفه للألوان شعريا وأثر ذلك على شعره جماليا

وتسعى الدراسة من خلال استثمار التحليل الأدبي للنصوص الشعرية للوقوف على الخلفية الدينية والأسطورية لتشبيهات امرئ القيس ، من أجل معرفة الهوية الاعتقادية له من خلال شعره ومصادر هذه الهوية، ومظاهر تنوعها سبيلا لرسم صورة كلية للرؤية الاعتقادية له وانعكاس ذلك على شعره فنيا وجمالي

المبحث الأول: السمات الدينية للمجتمع الجاهلي

المطلب الأول: السمات الوثنية للمجتمع الجاهلي

إن الحديث عن الحياة الدينية للمجتمع الجاهلي يقتضي منا ابتداء الانطلاق من جملة

أمور هي :

1 أن الرجوع إلى التاريخ العقدي للعرب في جاهليتهم يجعلنا أمام حقيقة مؤداها أن الوثنية طرئة عليهم ، إذ كان سكان الجزيرة العربية يدينون بمعتقد توحيدي : (بقية من الحنفية الإبراهيمية)

2 أن الوثنية استطاعت فرض سيطرتها على المجتمع الجاهلي فأصبحت المعتقد السائد ، وهذا مؤشر على تراخي المعتقد التوحيدي لدى سكان الجزيرة العربية خلال تلك الحقب من التاريخ

3 أن الوثنية - رغم أنها تتفق في كونها معتقدات مختلفة لا تستند إلى وحي أو حقيقة - إلا أنها تحمل في ثناياها تنوعا واختلافا لا يقف تحت حصر ، إذ قد تكون على شكل عبادة أجرام سماوية كالسما والشمس والقمر¹ ، كما قد تكون عبادة أصنام تصنع وتنحت

4 أن الخريطة الدينية للمجتمع الجاهلي تضم أيضا معتقدات توحيدية نصرانية ، خاصة في الشطر الشمالي منها المتاخم للبرنطين²

وبناء على ما تقدم يتضح لنا أن رسم مسار تاريخي للتطور العقدي خلال العصر الجاهلي أمر يحتاج الأخذ بالنسبية وعدم التعميم ، ومع هذا فإن الحقائق التاريخية تسمح بالقول إن عبادة الأصنام كان السمة البارزة ، فقد اتخوها الهة تعبد وأعطوها ما يترتب على ذلك من تعظيم وذبح لها وتقرب ونذر وقسم ، يقول ياقوت الحموي واصفا تعظيم بني تغلب لصنمهم الذي هو (أوال³) وكانت تغلب من ربيعة وكانت تلبية ربيعة عند وقوفها عند صنمها : لبيك ربنا لبيك ، لبيك

الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال الشعر الجاهلي ، محمد حمزة إبراهيم ، مجلة الخليج

العربي ، مجلد : 40 ، العدد : 2-1 ، 2012 ، ص : 4¹

شعراء النصرانية قبل الإسلام ، محمد كرد علي ، مجلة المقتبس ، العدد 14 ، ج 14 ، ص : 10²

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 1 ، ص : 395³

إن قصصنا إليك ، لبيك عن ربيع¹ ، لربها مطيعة ، ومن كلام جساس ابن مرة لما سأله أبوه مرة هل قتلت كليبا فقال : إي وأنصاب وائل ، ومن أشهر أصنام العرب (هبل) وكانت العرب تعظمه لكونه كان في جوف الكعبة ، ويقال إن أول من جعله هناك خزيمة بن مدركة المضري² ، وقد أخذ مكانته لديهم من كونه في مكان معظم ، وهنا تختلط المعتقدات الوثنية بالموروث التوحيدي ، إذ أن تعظيم الكعبة بقي راسخا في العرب ، وهو من بقايا الحنفية الإبراهيمية ، ومنها العزى ، وهي في الأصل شجرة³ ، وقد كان العرب يعبدونها ، ويرى بعض من درس التاريخ الأدبي للعرب من المسترقين أن أصلها كوكب ثم خسف ، وهنا نتبين القضية التي سبقت الإشارة لها سابقا وهي أن وثنية العرب كانت وثنية متنوعة لا تمثل عبادة الأصنام غير جزء منها ، وهذا ما يقودنا للتساؤل عن الحقيقة الفيزيائية للأصنام ، إذ قد تكون شجرا أو حجرا أو كوكبا أو بيتا⁴ ، وقد حاول بعض الدارسين أن يضع إطارا جغرافيا على أساسه ينقسم العرب في وثنيته إلى صنفين :

1 عرب الجنوب : وهؤلاء ذهبوا في وثنيته مذاهب شتى ، فعبدوا الكواكب والشمس

والقمر

2 عرب الشمال : ولم يعرف عن هؤلاء عبادة الكواكب أو الشمس والقمر⁵ ، بل اقتصر

وثنيته على الأصنام ، كما أن التساؤل أيضا يبقى مشروعا حول دلالة مسميات هذه الأصنام بين من يراها ذات مدلول عربي صرف ومن يراها تحريفا نطقيا لمسميات لالهة بابلية⁶ ، إذ أرجعوا

تاريخ اليعقوبي ، ج : 1 ، ص : 296¹

الكلبي ، الأصنام ، ص : 25²

الأغاني ، ج 4 ، ص : 152³

قصة الأدب في الحجاز ، عبد الله عبد الجبار ، ص : 228⁴

ابن الكلبي ، الأصنام ، ص 30⁵

أحمد كمال ، مجلة المقتطف ، العدد : 63 ، ص : 505 ، الأساطير العربية قبل الإسلام ، ص : 128⁶

الأصول الاشتقاقية لللات ومناة إلى أصل بابلي أو سومري ، والإطار الجامع بين كل هذه المعتقدات كونها معتقدات وثنية شركية ، إذ كانت الوثنية السائدة عند العرب في جاهليتهم هي عبادة الأصنام ، وبهذا نستكشف أمراً هاماً هو أن شركهم كان من جنس كفر الربوبية ، فهو شرك يتأسس عللاً ، الاعتقاد بوجود اشتراك في الربوبية بين الصنم وبين الإله دون أن يبلغ الصنم مبلغ الندية للإله ، ولم تكن عبادة الأصنام السمة الوثنية الوحيدة التي سادت في العرب قبل الإسلام ، بل كانت هناك طقوس وثنية تصاحبها الدكتور جواد علي ، إذ يقول : (وفي جملة ما حاربه الإسلام من أمور الجاهلية الأصنام والأوثان فطمست وأزيلت معالمها ، بل غير أموراً أقل منها شأنًا وخطراً مثل : خضرمة النوق ، وكان أهل الجاهلية يخضرمون من نعمهم ، فلما جاء الإسلام أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية ، وذلك منعاً للتشبه بالجاهليين ، وإبعاداً للمسلمين عن تذكر أيام ما قبل الإسلام ونهى عن تسنيم القبور وعن لبس بعض الملابس ، وعن أمور أخرى ، لأنها كانت من أعمال الجاهليين وحارب الإسلام العصبية التي كانت من أهم سمات الجاهلية ، والتي بقيت مع ذلك كامنة في نفوس الناس عصبية القبائل وعصبية القرى والمواضع)¹

المطلب الثاني: السمات التوحيدية في المجتمع الجاهلي:

إن الحديث عن السمات التوحيدية في التفكير الديني عند العرب قبل الإسلام يستدعي منا منهجياً حصر مدلول التوحيدية ، إذ المقصود بها الديانات السماوية ، وهذا يشمل اليهودية التي كان لها تأثير على العرب في جاهليتهم ، إذ كانوا يلجأون إليهم لكونهم أهل كتاب ، وقد فصل ابن خلدون هذه الصلة بقوله : (إذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنها أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل تورا من اليهود)² وهذا يكشف لنا أن تأثر العرب باليهود كان متأثراً

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ج : 8 ، ص 190: ¹

ابن خلدون ، العبر ، بيروت ، 1956 ، ج 1 ، ص 439. ²

معرفيا لحل إشكالات وإجابة على تساؤلات ، وليس تبعية دينية يترتب عليها اعتناق ديانتهم والسير في فلكتهم ، ويظهر لنا التبع التاريخي أن تأثير النصرانية على على كان أقوى وأجلى ، ويرجع بعض الدارسين السر في ذلك إلى انغلاق الهوية الدينية لليهودية ، فقد عد اليهود ديانتهم امتيازاً قومياً خاصة ببني إسرائيل حصراً ، فهم شعب الله المختار ، بينما النصرانية انطلقت من أفق أوسع فرأت أن دينها يسع البشر بمختلف قوم¹ ياتهم ، و لم يقتصر دورها على مجرد الاستشارات المعرفية كما هو حال اليهودية² ، بل تعداها لاعتناق المذهب النصراني ، فنجد أن قبائل من العرب وجدت فيها النصرانية ، ومما يؤكد حجم تأثير العرب بالنصرانية في تلك الفترة أن تأثرها لم يكن مقصوراً على عرب الشمال الذين هم على تخوم أرض الروم ، بل بلغ مدى أبعد ، حتى إنه وصل مكة ، فتنصر بعض رجالها ، منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل³ كما انتشرت الأديرة والكنائس ، وهذا ما كان له انعكاس في ، فظهر على ألسنة شعراء الجاهلية الإحالة على بعض المعتقدات النصرانية ، ويعلل ياقوت الحموي هذا التأثير الفني بالنصرانية عند العرب تعليلاً يرجع السبب إلى جمالية أبنية النصارى⁴ ودور عبادتهم وحسن أشكالها ، وهو تفسير ذهب إليه الدكتور عمار عبودي نصار إذ يقول : (يبدو أن تلك الأديرة قد أثرت عميقاً في حياة العرب ، فتراها قد ظلت مقصداً لطلاب التنزه والراحة ، فكانت موضع إعجاب العديد من العرب وموضوعاً لأشعارهم⁵) وهناك تأثير لدين إبراهيم عليه السلام ، إذ أن العرب في الأصل كانوا على دين أبيهم

¹ الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، محمد حمزة إبراهيم مرجع سابق ، ص 16
الديانات التوحيدية ، وأثرها في العقلية العربية قبل الإسلام ، عماد عبودي نصار ، مجلة اداب الكوفة ،

العدد 37 ، 1 أغسطس ، 2021 ، ص 270.

³ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، ج 6 ، ص 604

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 499 ،

الديانات التوحيدية ، وأثرها في العقلية العربية قبل الإسلام ، عماد عبودي نصار ، مجلة اداب الكوفة ،

العدد 37 ، 1 أغسطس ، 2021 ، ص 270.

إبراهيم عليه السلام ، ومن تجليات ذلك تعظيمهم الحرم وكونهم لا ينفرون صيده ولا يؤذونه ¹ ، وقد بلغوا في تعظيمهم الحرم في جاهليتهم أن كانوا ينزلونه نهارا ولا يبيتون به ليلا ، وإذا نزل أحدهم به نهارا وأراد قضاء حاجته خرج للحل تعظيما وتنزيها للحرم ² وهذا ندرك أن تعظيم العرب للحرم كان شريعة عامة ودينا متبعا ، وهذا كله بقية باقية فيهم من دين إبراهيم عليه السلام ، ويظهر ذلك جليا في تعظيمهم الأشهر الحرم وتحريمهم القتال فيه وكذلك الحج والغسل من الجنابة ، ثم أحدثوا في ذلك ، فقدموا أشهرها وأخروا أخرى ³ ، وتؤكد لنا النقوش الأثرية في بلاد العرب أن أهل الجاهلية كانوا يعرفون الله تعالى بل ويعتقدون ألوهيته ، وقد شرح ذلك المستشرق رينو ديسو بقوله : (إن النقوش الصفوية لأول مرة وبدليل لا يقبل الشك تبين كيف أن الله كان معروفا لدى العرب ، وكان مقدسا خاصة بين الآلهة المتعددة قبل أن يبشر به الإسلام) ⁴ ، والحقيقة أن رسم صورة مكتملة دقيقة للخريطة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام يبقى أمرا بالغ الصعوبة ، ومع ذلك يمكننا القول تأسيسا على تحليل المعطيات التاريخية المتوفرة إن الإطار الكلي لهذه الخريطة يمكن إجماله في المعتقدات التالية :

- 1 المعتقد الوثني : ويكاد يكون هذا المعتقد - بحكم اتساع دائرة تأثيره وانتشاره - المعتقد السائد ، فهو باعتبار الكم أكثر هذه المعتقدات رسوخا في تلك الفترة
- 2 المعتقد الحنفي : وهو عائد في نسبته للحنف الذي هو الميل ، وهو تعبير عن بقاء طائفة من العرب في الجاهلية ملتزمة بدين إبراهيم عليه السلام ، دون أن تنحرف مع التيار السائد في وثنيته ، وهذه الطائفة من منظور العدد تعد أقلية

¹ أديان العرب في الجاهلية ، محمد نعمان الجارم ، الناشر مطبعة السعادة ، مصر ، ط 1 ، 1933 ، ص : 17

² المرجع نفسه ، ص : 19

³ المرجع نفسه ، ص : 43

⁴ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، مرجع سابق ، ص : 325

3 المعتقد النصراني : وهو معتقد حقق رواجاً لا يستهان به عند العرب في جاهليتهم ، كما

أنه قد أثر لغويا ووجدانيا ، وانعكاسه على الشعر أمر بالغ الوضوح ، كما سيظهر في الدراسة

4 المعتقد اليهودي : وقد كان تأثيره هامشيا ، إذ أنه ظل في حدود تجارية ومعرفية ، ولم

يصل للجانبين الاعتقادي واللغوي

المبحث الثاني : الخلفية الدينية لتشبيهات امرئ القيس

المطلب الأول: الخلفية الدينية لإمرئ القيس:

يرجع الدكتور سليم الجندي أهم الأقوال بشأن عقيدة امرئ القيس وحجج كل فريق

وعناصر القوة والضعف فيما يلي :

1 القائلون بوثنيتته : وقد استدل أصحاب هذا الفريق على دلالة اسم امرئ القيس ، فهو

عندهم بمعنى عبد القيس ، على أساس أن القيس اسم لصنم ، وقد تصدى الجندي لهذا القول

وأبطله ، لكونه قول لا يصمد أمام النقاش ، فدلالة اسم الشاعر على العبودية لا تأباه قواعد

الاشتقاق وقواعد الدلالة¹ ، كما أن استصحاب سيرة امرئ القيس تبطل هذه الدعوى ، إذ يذكر

الرواة من أمثال ابن الكلبي وغيره أن امرأ القيس مر (بذي الخلصة) واستقسم عنده ثلاث مرات ،

فخرج الناهي فكسر القداح ورمى بها الصنم ، وليست هذه حال من يعظم الأصنام ويعبدها عنده ،

وهذا الدليل الذي ساقه سليم الجندي لا يكفي من وجهة نظري لإبطال القول بوثنية امرئ القيس

، ذلك أن المواقف الأحادية لا تصلح للاعتداد بها وحدها ، فقد تكون الظروف النفسية هي ما

قادته لضرب الصنم بالسهم ، إذ لو لم يعتقد في الصنم تأثيراً أصلاً لما التجأ إليه يتوسل منه حلاً

لمعضلته

2 مزدكيته : ويستدل أصحاب هذا الرأي لصحة دعواهم بجملة أمور منها : أن هناك

جذوراً لهذا المذهب المجوسي في عائلة الشاعر ، وأن جده الحارث كان يعتنق هذا المذهب كم

أقاموا على صحة دعواهم دليلا يستند إلى مضامين شعر امرئ القيس المتهتكة بعرض النساء من محارمه ، وذلك مما يعزز ميوله المزدكية ، وقد أبطل الجندي أيضا هذا الرأي معتبرا أن اعتناق الحارث جد الشاعر لهذا المذهب كان مجاملة لسيدة كسرى ، مستدلا كذلك لإبطال هذا القول بأن في شعر امرئ القيس ما يناقض هذا المذهب وهو إبطال لم يحتط فيه الباحث ، إذ من المعلوم أن المعتقدات تؤثر فيها البيئة السائدة ، وكون جده قد اعتنق هذا المذهب يعطيه رسوخا عائليا ، كما أنه ليس من الدقة الحكم على اعتناق الحارث ديانة مزدك القول إن ذلك كان مداراة ، فتحديد دوافع البشر في اختيار عقائدهم أمر عصي ، لكونه مما تسره الضمائر ، ولا سبيل لمعرفته ، كما أن الاعتماد على شعر الشاعر وحده دون الرجوع للمصادر التاريخية لإبطال مسألة تاريخية أو إبطالها لا يخلو من وجهة نظري من مجازفة منهجية ، فالأصل أن يعتمد في القضايا التاريخية على مصادرها الأصلية ، إذ الشعر دفقات شعورية يغذيها الخيال وتسقيها العاطفة ، والاحتياط جعلها دليلا ظنيا فقط

3 نصرانيته : ويبدو هذا الرأي - من وجهة نظري- الأقرب إلى طبيعة امرئ القيس كما يعكسها شعره ، مع التذكير بما سبقت الإشارة إليه من أن اتخاذ الشعر دليلا قاطعا على تحديد معتقدات الشعراء به من المزالق ما لا يخفى على ذي بصر ، وقد أحسن الدكتور الجندي في القول إن مجرد وجود مضامين دينية نصرانية : (وقد استطعنا تجليتها والوقوف عليها كما سيظهر لاحقا) لا تكفي للجزم بكون امرئ القيس كان نصرانيا ، ومما يطعن في مستندات القائلين بنصرانيته عند سليم الجندي أنه تزوج عدة نساء وطلق أم جندب ، وهذا مخالف للتقاليد النصراني¹ ، كما أن كون المضمون النصراني كان مكونا من مكونات الصورة الشعرية لديه ، وقد وقفت في هذه الدراسة على مظاهر ذلك : (مصابيح الرهبان ، ثوب المقدس الخ) لا تعني بالضرورة أنه اعتنق النصرانية ، بل هي مؤشر على أن البيئة الدينية المحيطة به به مظاهر لوجود ديني نصراني ، كما

¹ سليم الجندي ، امرؤ القيس ، مرجع سابق ، ص 170 ، 171

أن بها أيضا مظاهر وثنية كان لها إسهامها في رسم معالم الصورة الشعرية لديه : (عذارى دوار) ونحن قد لا نتفق مع ما ذهب إليه الجندي من أن امرئ القيس كان على دين هواه ولذته ، لا يدين بمذهب آخر ، ولا يدين بدين سواه¹ ، ومرد هذا التحفظ أن به مصادرة لمضامين جملة من نصوص الشاعر ذات المضمون الديني : (أرانا موضعين لأمر غيب ، ونسحر بالطعام وبالشراب) فالإحالة على الغيب واستشراف المصير لا تصدر إلا عن وعي ديني ، كما أن رأي الجندي السابق – وإن كان يصدق على فترات من حياة امرئ القيس في بواكير شبابه وطيشه – فإنه قد لا يعبر عن حياته وقد أبلت الأيام جدته وعركته الليالي بئفائها

المطلب الثاني : المكونات الدينية للتشبيه عند امرئ القيس :

إن قراءة ديوان امرئ القيس في تعالقه مع المضمون الديني قد أوحى إلينا بحقيقة مؤداها أن هناك تعددا في مرجعيات المضمون الديني الاعتقادية ، ذلك أن هذه المضامين يمكن تناولها انطلاقا من التقسيم الآتي :

المضمون العقدي التوحيدي :

ونجد له حضورا معتبرا في ديوان الشاعر ، من خلال نماذج شعرية يحيل فيها امرؤ القيس لمضمون ديني توحيدي ، سواء كان هذا المضمون دعاء : (وذلك من دهر مضى من شبيبتي ، فلا يبعد الله الشباب إذا انقضى)² فهو هنا يدعو الله بقاء الشباب ، أو كان قسما ، فقد تعددت الأيمان في شعره وكان يقسم فيها بالله : (كلا يمين الله يجمعنا شيء وأخوانا بني جشما³) كما نجد القسم بالله تعالى في قوله حكاية عن محبوبته : (فقالت يمين الله ما لك حيلة ، وما إن

¹ المرجع نفسه ، ص : 171

² الديوان ، ص 335

³ الديوان ، ص : 208

أرى عنك الغواية تنجلي¹) والقسم بالله تعالى عند امرئ القيس – وإن كان يستوجب إعادة النظر في تصنيفه تصنيفا وثنيا بحكم كون الحلف بالأصنام من مرتكزات الجاهلية – فإنه أيضا لا يمنحنا المشروعية المطلوبة لتصنيفه موجدا ، إذ قد لا يكون هذا القسم أسلوبا مستوحى من بيئته دون أن يكون له ما يعضده من معتقد الرجل ، ويشهد لذلك من وجهة نظري اعترافه بأن يمينه كاذبة من خلال اعترافه على نفسه بالفجور : (حلفت لها بالله حلفة فاجر²)

وقد ترد هذه المضامين الدينية على شكل كالحديث عن قدرة الله جل وتصرفه في الكون ، كما هو الحال في قصيدة له خصصها لوصف المطر ، والذي يثير التساؤل أكثر أن المضمون العقدي في هذا النص لم يكن بالصيغ الشائعة عند أهل الجاهلية السائرة في مخاطبتهم ، بل ورد بصيغة توحى بعمق المعتقد ، لكونه لم يكتف في البيت الذي بين أيدينا على ذكر قدرة الله جل وإنزاله المطر بل وصفه سبحانه بأنه رب العرش ، معترفا له جل بالوحدانية : (بذي العرش واحدا) وهو مضمون توحيدي جدير بالتوقف ، يقول امرؤ القيس :

نشاء إنشاء لذي العرش واحدا ، فأنشأ نشأ منشء الريح مكسف³

إن مثل هذه المضامين الموجودة في البيت السابق لا يمكن أن تصدر إلا إذا كان الشاعر مطلعاً على معان عقدية توحيدية ، فالحديث عن نزول المطر وعن كونه ناشئاً عن قدرة الله جل وتقديره وذكر العرش أمور كلها دالة ، لكن التساؤل يبقى قائماً عن مشروعية اتخاذ الشعر وسيلة تستخرج منه عقائد الشعراء ونحن هنا لسنا في وارد الحكم على امرئ القيس بالشرك أو بالتوحيد اعتماداً على عبارات ترد في نصوصه الشعرية ، بل إن قصارى ما نصبو له هو التوقف عند المضامين الدينية في شعره ومحاولة تأويل ذلك ، وهنا نقف عند نص لامرئ القيس يدعو فيه إلى

¹¹ الديوان ، ص: 14

² الديوان ، ص: 32

³ الديوان ، ص : 329

ترسيخ قيمة دينية كبرى هي التقوى : (إذا ما اتقى الله الفتى ثم لم يكن ، على أهله أهله كلا فقد كمل الفتى)¹ ، وهنا يعترضنا إشكال ملح هو يتعلق بحقيقة المدلول الحقيقي للمفردات الدينية الواردة عند امرئ القيس ، هل لها ذات الحمولة الدينية التي عليها بعد الإسلام ، هل هي مغايرة دلاليا لمعانيها الدينية التي استقرت عليها بعد الإسلام لكيلا نحاكم هذه المفردات بأثر متأخر عنها زمنيا ، ونحن نعرف أن الشاعر ربما استخدم عبارات ذات مضمون ديني استخداما عفويا بمقتضى شيوعها على ألسنة الناس في زمنه مثل : (لا يبعد الله ، أبى الله لي) وقد تقدمت معنا العبارة الأولى ، ووردت العبارة الثانية في قوله :

أبى الله والسيف لي والسنا ن أن أخذل كندة ما حييت²

وقد كانت تشبيهات امرئ القيس مجالا لتقاطع جملة من المعتقدات نقف هنا عند جانبها المتأثر بالعقائد السماوية ونخصص جانباً لجانبها الوثني ، وهذه التشبيهات – كما أسلفنا – لا تصلح دليلاً على معتقد الشاعر ، بل هي علامة على اطلاع الشاعر على هذه الديانات ببعدها الطقوسي والاعتقادي لكون التشبيه يقتضي وجود صورة مكتملة في الذهن للمشبه به وأن يكون أعرف في الذهن من المشبه لأن من مقاصد التشبيه عند البلاغيين بيان حال المشبه وإيضاح صفته ومقدارها اعتماداً على وضوح كل هذه الأشياء في المشبه به يقول امرؤ القيس مشياً ناقته في طولها وعلوها ببيع اليهود وما تشيده من بناء مرتفع :

فعزيت نفسي حين ساروا بجسرة أمون كبنيان اليهودي خيفق³

فامرؤ القيس – كما يحيل إليه هذا البيت – عاش في بيئة يوجد بها اليهود ، وهذا أيضاً ما تؤكد الروايات التاريخية من أنه في رحلته إلى قيصر قد أودع أمانة للسموأل بن عادي الذي هو

¹ الديوان ، ص : 336

² الديوان ، ص : 320

³ الديوان ، ص : 169

يهودي ، وهذه قرينة تاريخية توثق احتكاكه باليهود ، إلا أن هذا الاحتكاك لم يولد من وجهة نظري قناعة دينية ، إن تتبع المضمون الديني في شعر امرئ القيس قد أوحى إلينا أنه عاش في بيئة دينية تتجاوزها منابع دينية متعددة ، سواء كانت توحيدية من بقية دين إبراهيم عليه السلام أو يهودية أو نصرانية ، إذ يبدو أن امرأ القيس قد تأثر بالسياق النصراني ، يتجلى ذلك في كونه يشبه وجه محبوبته بمصاييح الرهبان ، وهو مضمون لا نريد منه أن يكون دليلا على اعتناقه النصرانية ، فهذا شطط في التأويل لا نسمح لأنفسنا به ، حسبنا أنه يأصل لتأثر الشاعر بالبيئة الدينية النصرانية ، يقول امرؤ القيس :

تضيء الظلام في العشي كأنه منارة ممسى راهب متبتل¹

فامرؤ القيس – كما يحيل لذلك شعره – عاش في سياق ديني تروج فيه طقوس نصرانية مترسخة داخل عالم الشاعر الذهني بغض النظر عن موقفه الفكري منها سلبا أو إيجابا ، فهو يشبه سطوة الكلاب في الصيد وتشقيقها الفريسة بتشقيق الولدان للقدام من بيت المقدس ، يقول امرؤ القيس :

فأدركته يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وهناك مكون ديني لا يمكننا إغفاله وهو المكون الوثني ، فامرؤ القيس يشبه بقر الوحش بعذارى دوار ، وهو صنم كان أهل الجاهلية يعظمونه ، يقول امرؤ القيس :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في الملاء المذيل²

والحقيقة أن اتخاذ هذه المضامين الدينية مطية لترجيح ميول الشاعر العقدي لا يخلو من مجازفة فنية ، إذ أن ما يجمع بين كل هذه التشبيهات أن الشاعر يبدو محايدا دينيا ، بحيث لا

¹ الديوان ، ص : 17

² الديوان ، ص : 22

يتبنى فيها موقفا دينيا من الأساس ، فهي دليل على معرفته واطلاعه على هذه المضامين الدينية وليست مستندا يكشف معتقده

الخاتمة :

وأخيرا يمكننا بناء على ما تقدم وتأسيسا عليه أن نخرج بالخلاصات التالية :

- 1 أن دراسة السياق الديني الذي عاش فيه الشاعر قد أوضحت إلينا بحقيقة مفادها أنه سياق ديني متعدد المشارب تتجاذبه أصداء لعقائد مختلفة منها ما هو وثني ومنها ما هو توحيدي
- 2 أن هذا التعدد في المرجعيات العقدية الذي ميز عصر امرئ القيس قد انعكس على مضامين شعره ، إذ نجد فيه تجاوبا مع كل هذه المعتقدات ، وفي هذا دليل على أنه كان على اتصال بكل الفلسفات والعقائد السائدة
- 3 أن دراسة المضامين الشعرية عند امرئ القيس تفرض علينا الإقرار بنتيجة مؤداها أن حضور المعتقدات الدينية في شعره كان متفاوتا كما ونوعا ، وأن أكثر هذه المضامين تعود لجذور دينية توحيدية نصرانية بالدرجة الأولى ويهودية بدرجة أقل أو وثنية في بعض الحالات
- 4 أن دراسة الحضور الديني في شعر امرئ القيس وتحليل طريقة توظيفه لهذا الحضور يجعلنا أمام أمر مؤداه أن هذا الحضور لا يجعلنا أمام موقف ديني صريح يكشف طبيعة قناعاته الدينية ، فهذه غاية لم نصل لها ، وأعتقد أن الوصول إليها – اعتمادا على ما هو متوفر من معطيات نصية – لا يعدو أن يكون ضربا من الشطط التأويلي

قائمة المصادر والمراجع :

- أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين ، دار صادر بيروت ، ج 4
- أحمد كمال ، الأساطير العربية قبل الإسلام ، مجلة المقتطف ، العدد: 63
- امرؤ القيس ، محمد سليم الجندي ، الناشر : مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة ، 2017 ،
- امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط 4 ، 1984
- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ط 6 ، 1995 ، ج : 1 ،
- عبد الله عبد الجبار ، قصة الأدب في الحجاز ، الناشر : مكتبة الكلية الأزهر جواد علي ،
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الناشر دار الساق ، ط 4 ، 2001 ، ج : 8 ،
- عماد عبودي نصار ، الديانات التوحيدية ، وأثرها في العقلية العربية قبل الإسلام مجلة
- الديانات التوحيدية ، وأثرها في العقلية العربية قبل الإسلام ، عماد عبودي نصار ، مجلة آداب
- الكوفة ، العدد 37 ، 1 أغسطس ، 2021 ، آداب الكوفة ، العدد 37 ، 1 أغسطس ، 2021
- بن خلدون ، ، بيروت ، 1956 ، ج 1 ، العبر ،
- الكلبي ، الأصنام ، تحقيق أحمد زكي باشا ، دار الكتب المصرية ، ط 3 ، 1995 ،
- محمد حمزة إبراهيم ، الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال الشعر
- الجاهلي ، مجلة الخليج العربي ، مجلد : 40 ، العدد : 2-1 ، 2012
- محمد كرد علي ، شعراء النصرانية قبل الإسلام ، مجلة المقتبس ، العدد 14 ، ج 14
- محمد نعمان الجارم ، أديان العرب في الجاهلية الناشر مطبعة السعادة ، مصر ، ط 1 ،
- 1933 ،
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، 1993 ، ج 1 ،